نوادر من لباب الآداب

في كتاب لباب الآداب امور كثيرة مذكورة في كتب الادب وفيهِ امور اخرى ولعت للمؤلف او حدثت في زمانهِ والغالب انهُ لم يذكرها احد غيرهُ كقصة بطريرك الاقباط التي نقلناها عنهُ في متنطف ابريل . وها نحن موردون الآن حوادث اخرى حدثت في زمانهِ لا قصد الفكاهة بل للاستدلال على شيء من احوال الناس في عصرهِ اي منذ نحو ثمانمئة سنة . وقد ذكر قبل الحادثة الاولى اسطورة مروية عن الاسكندر المقدوني قال

قال القاضي ابو القسم علي بن عبد المحسن بن علي التنوخي رحمهُ الله حدثني ابو الفرج الاصبهاني من حفظهِ قال قرأت في بعض اخبار الاوائل أن الاسكندر لما انتهى الى الصين ونازل ملكها اقامهُ حاجبهُ وقد مضى من الليل شطرهُ فقال لهُ رسول ملك الصين بالباب يستأذن عليك فقال ائذن لهُ . فلما دخل وقف بين يديهِ وسلم وقال ان رأى الملك ان يخليني فليفعل . فامر الاسكندر من بحضرتهِ بالانصراف وبقي حاجبهُ . فقال لهُ الرسول ان الذي جئت لهُ لا يحتمل ان يسمعهُ غيرك . فامر بتفتيشهِ فتفتش فلم يوجد معهُ شيء من السلاح فوضع الاسكندر بين يديهِ سيفاً مجرداً وقال لهُ قف مكانك وقل ما شئت ثم اخرج كل من كان عندهُ . فلما خلا المكان قال لهُ الرسول اني انا ملك الصين لا رسولهُ وقد حضرت اسألك عما تريدهُ فان كان مما يمكن الانقياد اليهِ على اصعب الوجوه اجبت اليهِ وغنيتهُ انا وانت عن الحرب . فقال لهُ الاسكندر ما امنك مني . فقال علي بانك رجل عاقل وانهُ ليس بيننا عداوة متقدمة ولا مطالبة يدخل وانك تعلم أن اهل الصين متى قتلتني لا يسلمون اليك ملكهم ولم يمنعهم عدمهم اياي ان ينصبوا لانفسهم ملكاً غيري ثم تنسب انت الى غير الجميل وضد الحزم

فاطرق الاسكندر مفكراً في مقالتهِ وعلم انهُ رجل عاقل ثم قال لهُ الذي اريد منك ارتفاع ملكك ثلاث سنين عاجلاً ونصف ارتفاعهِ في كل سنة . قال هل غير ذلك قال لا . قال اجبتك . قال فكيف يكون حالك حينئذٍ . قال اكون قتيل اول محارب واكلة اول مفترس . قال فان قنعت منك بارتفاع سنتين كيف يكون حالك قال اصلح اذا لزمت مما تقدم ذكرهُ قال فان قنعت منك بارتفاع سنة واحدة . قال يكون ذلك مذهباً لجميع لذاتي . قال فان اقتصرت منك على السدس . قال يكون السدس موفراً والباقي لجيشي واسباب الملك . قال قد اقتصرت على هذا . فشكرهُ وانصرف

فلما اصبح وطلعت الشمس اقبل جيش الصين حتى طبّق الارض واحاط بجيش الاسكندر حتى خافوا الهلكة وتراتب اصحابهُ فركبوا واستعدّوا للحرب فبينما هم كذلك اذ ظهر ملك الصين وعليهِ التاج فلما رأى الاسكندر ترجّل فقال لهُ الاسكندر اغدرت قال لا والله قال فما هذا الجيش قال اردت ان اعلمك اني لم اطمك عن قلة ولا من ضعف ولين ترى الجيش وما غاب عنك اكثر ولكني رأيت العالم الاثير مقبلاً عليك ممكناً لك فعلمتُ انهُ من حارب العالم الاثير غُلب فاردت طاعتهُ بطاعتك والذلة لامره بالذلة لك. فقال الاسكندر ليس مثلك من يؤخذ منهُ شيء فما رأيت بيني وبينك احداً يستحق التفضيل والوصف بالعقل غيرك وقد اعفيتك من جميع ما اردتهُ منك وانا منصرف عنك . فقال ملك الصين اما اذا فعلت ذلك فلست تخسر . فلما انصرف الاسكندر اتبعهُ ملك الصين من الهدايا والالطاف بضعف ما كان قرّر معهُ

هذه الاسطورة موضوعة كما لا يخفى وهي ليست من التاريخ في شيء وقد ذكرها المؤلف تمهيداً للقصة التالية . ويظهر لنا ان القصة التالية صحيحة ولو على وجه الاجمال وتستحق ان تحسب حادثة تاريخية الاّ اذا قامت ادلة تنفيها وهي

جرى في مدتي ما يشاكل حديث الاسكندر وانا موردهُ وذلك ان الافرنج خذلهم الله لما خرجوا في سنة تسعين واربع مائة وفتحوا انطاكية وقهروا اهل الشام تداخلهم العظمة وحدثتهم نفوسهم بملك بغداد وبلاد الشرق فحشدوا وجمعوا وساروا يريدون البلاد وصاحب الموصل في ذلك الوقت جكرمش فجمع امراء التركمان الأرتقيّة ومن قدر عليهِ ولقيهم على الخابور فكسرهم واسر من تقدمهم الملك بغدوين الرويس وجوسلين وسيّرهم الى قلعة جعبر الى عند الامير شهاب الدين مالك بن سالم واودعهم عندهُ وعاد من بقي من الافرنج الى بلادهم ومقدمهم ميمون صاحب انطاكية فركب في البحر وسار الى بلادهِ يستنجد بالافرنج ويحشد ويرجع فمات قبل ذلك ومات جكرمش صاحب الموصل واقطع السلطان الموصل جاولي سقاوي فعزم على الغزاة وتوجّه الى الشام فوصل قلعة جعبر وطلب اسارى الافرنج الذين عند صاحبها فقال هم بحكمك قال اقطع عليهم مالاً يشترون بهِ انفسهم فتحدث معهم شهاب الدين وقرّر عليهم مائة الف دينار وعرف جاولي بذلك فقال انفذلي جوسلين فلما حضر عندهُ قال قطعتم على انفسكم مائة الف دينار . قال نعم . قال تشتهي اهب لك عشرة آلاف دينار قال ما يتكر لمثلك ان يهب عشرة آلاف دينار . قال تشتهي ان اهب لك عشرين الف دينار قال ايصلح لملك مثلك ان يتلاعب بمثلي قال والله ما تلاعبت بك ولو اردت ان آخذ منك المال

ما ابصرتك ولا تحدثت معك . وانا اطلقكم واخلي لكم المال كله بل في حاجة تقضوها لي قال ما هي . قال صاحب انطاكية وصاحب حلب اعداي اريدكم تعينوني على تنالهم . وكان صاحب انطاكية دنكري وصاحب حلب الملك رضوان . فقال جوسلين نمضي ونجتمع فارسنا وراجلنا ونعملك نقاتل معك كل من قاتلك

فاطلقهم فمضوا وحشدوا وجمعوا ووصلوا الى خدمته وسار هو وهم الى لقاء عسكر حلب وعسكر انطاكية حتى التقوا . فحدثني من حضر حربهم قال كان وقع السيوف بينهم يعني الافرنج كوقع القرس في الحطب فكسرهم صاحب انطاكية فاما المسلمون فطار من سلم منهم واما الافرنج فاسر من فرسانهم جماعة كبيرة فجاؤوا الى عند دنكري صاحب انطاكية ثاني يوم اسرهم وقالوا له اي شيء تريد تعمل بنا . قال احملكم الى انطاكية احبسكم . قالوا والله ما فينا من يتبعك ولا يجيء معك نحن عراة ما معنا ثياب ولا نفقة ولا فرش تنام فيها ولا معنا غلمان يخدموننا . قال واي شيء تعملون . قالوا تخلينا نمضي الى بيوتنا نعمل شغلنا ونجيء الى الحبس . قال امضوا فمضوا واحضروا غلمانهم ونفقاتهم وفرشهم ووصلوا الى عندر الى انطاكية فحبسهم الى حين تسهّل خلاصهم

ومن النوادر التي قال اسامة انها حدثت في زمانه ما يأتي

كان بيننا وبين الاسمعيلية قتال في قلعة شيزر في سنة سبع وعشرين وخمس مائة لعملة عملوها علينا ملكوا بها حصن شيزر وجماعتنا في ظاهر البلد ركّاب والشيخ العالم ابو عبد الله محمد بن يوسف بن المنيرة رحمة الله في دار والدي يعلّم اخوتي رحمهم الله فلما وقع الصياح في الحصن تراكضنا وصعدنا في الجبال والشيخ ابو عبد الله قد مضى الى داره الى الجامع وكانت داره في الجامع فوصل عمي فخر الدين ابو كامل شافع بن علي رحمة الله الى تحت الجامع والشيخ ابو عبد الله مشرف عليه فقال له صاحب لعمي يا شيخ ابا عبد الله دلّ لنا حبلاً قال ما عندي حبل قال فدلّ عمامتك فابطأ عليه فتجاوزه وطلع من مكان آخر فقيل للشيخ ابي عبد الله كنت عريان وعلى رأسك عمامة قال لا ما كان عليّ عمامة ثم افكر فقال بلى والله قد قال لي وهب بن التنوخي وهو مع الامير فخر الدين ابي كامل شافع دلّ لنا حبلاً قلت ما عندي حبل فقال دلّ لنا عمامتك ولو لم يكن قد رأى عليّ عمامة ما قال ذلك . فكان رحمة الله عريان وعليه عمامة ولا يدري بالحال التي هو عليها لرعبه وضعف قلبه

ومنها كان عندنا بشيزر رجل يقال له محمد البشيش كان يخدم جدي سديد الملك ابا الحسن علي بن نصر بن منقذ الكناني رحمة الله وكيلاً على ضيعه ببلد كفر طاب يقال لها

ارجه ادركتهُ وهو شيخ كبير وكان ابدًا شجاعًا . قال جئت يومًا في الحر الى ركية ارجه لاشرب فرأيت رجلاً عليهِ معرفة امرأة وعلى كتفهِ كارة ثياب فداخلني الطمع فيهِ فقلت حط الكارة فاظهر لي خوفًا وقال حاشا مولاي وحطها عن كتفهِ فتقدمت اليها لاخذها فمد يدهُ فقبض على ركبتي رفعني عن الارض ثم ضرب بي الارض وبرك عليَّ واخرج من وسطهِ سكينًا كشعلة النار ليقتلني فعلت الصيحة فنهض عني وخلاني وقال لا تحتقر الرجال ثم فتح الكارة فاخرج منها قميصًا دفعهُ اليَّ

ومنها وشاهدت رجلاً من اجنادنا الاكراد ينعت بزهر الدولة بختيار القبرصي سمي بذلك لصغر خلقتهِ وكان رحمة الله من خيار المسلمين في الشجاعة والدين وقد ظهر عندنا اسد فحمل عليهِ فاستقبلهُ الاسد فخاض بهِ الجمان فرماهُ فجاءهُ الاسد ترفع رجلهُ تقتلهُ الاسد وبادرناهُ نقتلنا الاسد فقلنا لهُ يازهر الدولة ما معنى دفع رجلك الى الاسد قال رأيتها اكسى ما فيَّ في الزان والساق والخف فقلت ان امسك اضلاعي كسرها وان مسك رأسي خشهُ ليشتغل برجلي الى ان يفرج الله . فعجبنا من حضور فكرهِ في ذلك الوقت

وختم المؤلف باب الفراسة بقولهِ : قد اوردت في كتابي المترجم بكتاب الاعتبار عجائب ما باشرتهُ وحضرتهُ وشهدتهُ من الحروب والمضاقات والوقائع منذ كنت ابن خمس عشرة سنة الى ان تجاوزت الستين وما نالني منها من الجراح والمكاره وانا القائل

الوم الردى كم خضتهُ متعرضًا ... لهُ وهوَ عني معرضٌ يتجنبُ
وكم اخذت مني السيوف مآخذ ... الحمام ولكن القضاء مغيبُ
الى ان تجاوزت الثمانين وانقضت ... تلهنية العيش الذي فيهِ نرغبُ
فكروه ما تخشى النفوس من الردى ... الذُّ واحلى من حياتي واطيبُ

نقف الآن عند هذا الحد وفي النوادر التي نقلناها امور كثيرة حرية بالنظر من ذلك ذكرهُ كلمة الافرنج بهذا اللفظ الشائع الآن في مصر والشام فاستعمالها كذلك قديم ولا داعي للعدول عنهُ الى كلمة فرنج او فرنجة . ولم نرَ في ما لدينا من التواريخ اشارة الى قصة بغدوين ملك القدس وجرسلين صاحب تل باشر لكن ابا الفرج قال في تاريخهِ ان بغدوين مات في القدس ووصى ببلادهِ للقمص صاحب الرها وهو الذي كان اسرهُ جكرمش واطلقهُ سقاوو جاولي . وعليهِ فاسم الموصول راجع الى بغدوين لا الى القمص اذا كان مراد ابي الفرج الاشارة الى اسر بغدوين مع جوسلين واطلاق جاولي سقاوي لهما . وجاء في

تاريخ الصليبيين للسر جورج كوكس ان جوسلين اعان بلدوين البرجي حتى خلف الملك بلدوين الثاني فجعلهُ بلدوين البرجي اميرًا على الرها لكن جوسلين هذا أسر اخيرًا سنة ٥٤٦ ومات اسيرًا فهل هو جوسلين عينهُ الذي أسر اولاً سنة ٤٩٠ او ان اسامة لم يكن يدقق في ذكر السنين كما يظهر مما نقلناهُ عنهُ في الجزء الماضي حيث قال انهُ كان في مصر سنة ٥٤٧ في عهد الملك العادل مع ان الملك العادل خلف الملك الصالح سنة ٦٠٥

وكيفما كانت الحال فالقصة محتملة الصدق ولا بدَّ من انها كانت تروى في عهدهِ حتى تمثل بها وهي تماثل ما يرى عن اخلاق فرسان الصليبيين وشهامتهم وحفظهم للذمام وما كان جاريًا في ذلك العهد من استعانة امراء المسلمين بامراء الصليبيين وامراء الصليبيين بامراء المسلمين

ومنها اهتمام امراء المسلمين بتعليم اولادهم فقد كان ابو اسامة مستخدمًا شيخًا من كبار العلماء لتعليم اولادهِ وظهرت نتيجة تعليمهِ في تفوق اسامة في الانشاء نثرًا ونظمًا

ومنها ان ذلك الزمان كان زمان حروب متتابعة ولذلك كانوا يضطرون ان يقيموا في الحصون ويصعدوا اليها بالحبال

ومنها ان الاسود كانت لا تزال كثيرة في بلاد الشام او في اطرافها فذكر هذا الاسد من غير استغراب وقد انقرضت الاسود منها الآن . وكتاب الاعتبار لاسامة طبع في لندن وباريس . وواضح مما ذكرهُ هنا انهُ الف كتاب لباب الآداب وعمرهُ اكثر من تسعين سنة فهو ثمرة يانعة من ثمار عقلهِ بعد ان حنكتهُ التجارب وراضتهُ الايام . وفي الكتاب ادلة كثيرة على انهُ لم يقرأهُ بنفسهِ بل قُرئ لهُ لانهُ وقعت في كتابتهِ اغلاط صرفية لا تقع في كتابة من كان مثلهُ او لا تقع تحت نظرهِ من غير ان يصلحها كبقاء آخر الناقص مجزومًا وذكر همزة التعدية حيث لا داعي لها وعدم ذكرها حيث هي لازمة كأنَّ الكاتب قرأ ما كتبهُ صحيحًا فلم ينتبه اسامة الى ما بهِ من الخطإ . وفي الكتاب ادلَّة على ان الكاتب بيَّض مسودات كانت عند اسامة وخطها غير جلي لانهُ ترك بعض الاعلام الاعجمية ثم كتبها بقلم آخر وهو يقرأ الكتاب على المؤلف او اخطأ في كتابتها ثم اصلحها لما قرأ الكتاب . اما دعاء اسامة على الافرنج بقولهِ خذلهم الله فاقل مما كان يستعملهُ غيرهُ من كتَّاب عصرهِ